الفصل الخامس
الحِسُّ الجُغرافيّ على المخّلفات والأعمال الفنيّة الآثارية عِند الفنّان العراقيّ القديم

يبدو ان المعلومات والمفاهيم الجغرافية التي نقف عليها ونحن نقرأ حوليات الملوك العراقيين القدماء التي خلّدت في جزء من وقائعها حملاتهم على بلدان واصقاع شاسعة من الشرق الادنى القديم، قد عُزّزت بما يدعم روايتها ويوضح الجوانب من الصور السردية لتلك الحملات، يتضح ذلك من خلال العديد من الاعمال الفنية التي عثر عليها في مختلف المواقع الاثرية في بلاد الرافدين، والتي ضمت مشاهداً طبيعية وبيئات جغرافية متباينة توحي وتشير الى مسرح الحدث الذي شَهِد واقعة او معركة او سيطرة على منطقة معينة.

وهذه الاعمال ان دلت على شيء فإنما تدل على توافق المعلومات الواردة في تلك الحملات مع رواية النص المسماري لحملة الملك، والتي اوردت ذكراً للعديد من المواقع الجغرافية التي مرت او حدثت فيها تلك الوقائع، فجاءت اعمال اولئك الفنانين، وهي مخلفات وادلة مادية لا يرقى اليها الشك او الطعن فيها[1]، لتؤكد صحة تلك المعلومات ودقتها ولتعبر عن صدق تمثيلهم وابرازهم لتضاريس وبيئات مختلفة من المشاهد التي تظهر تسلسلاً لاحداث تلك الحملات، فضلا عن تمتع اولئك النحاتين الذين انجزوا تلك الاعمال بحس جغرافي عالٍ. ولعل تلك الحملات كانت تضم فيما تضم، الفنانين (النحاتين) الذين كان تواجدهم ومرافقتهم للحملة فيما يبدو هو لأخذ الانطباع حقيقي لاجواء المناطق وساحة المعركة التي وقفوا عليها ميدانيا، والمناطق والطرق التي مرت بها الحملة، فاستطاع اولئك الفنانون فيما بعد توظيف عناصر الطبيعة ومفرداتها وموارد البيئة وبشكل يدعو للدهشة، كالجبال والانهار والوديان والعيون والشلالات والاهوار والمستنقعات والنجوم والغابات وانواع الاشجار والطيور والاسماك وغيرها وابرازها في العمل الفني لاعطائها بعداً تصويرياً لاجواء الحدث ومكانه مراعين في الوقت نفسه بعض قواعد النحت كالتوازن والحركة والتجسيد بينما غاب المنظور والنسب والمقاييس في تمثيل بعض هذه العناصر. ولعلهم كانوا يضعون تصاميماً اولية وملاحظات لتلك المشاهد، ويبدو ان

---

(١) ان ما اشير من قبل الباحثين بخصوص المبالغة في الحوليات الملكية نعتقد انه لا ينطبق على المشاهد التي توضح تضاريس البيئة، وانما المبالغة والهدف الاعلامي في هذه النصوص هي في تضخيم حجم خسائر العدو وتقليلها عند الطرف الآخر.

هذا الامر كان يتم بالتعاون والتنسيق مع الكتبة الملكيين الذين هم بدورهم كانوا يضعون نسخا اولية، اذ كانوا لابد ان يكتبوا او ينقشوا (يضعوا تخطيطاً) للنص او المشهد على لوح من الطين اولا ثم يقومون فيما بعد بتنفيذه ونقله على المسلة او التمثال او المنحوتة في العواصم بعد عودتهم من الحملة، تماما كما يفعل النحاتون اليوم عندما يريدون نحت تمثال او نصب ذي تفاصيل كثيرة وحجم كبير إذ يقوم الفنان بعمل أنموذج المصغر على الطين ومن ثم يتم تكبير العمل بالحجم المطلوب. وقد عثر فعلاً على الواح من الطين من عهد الملك اشور بانِ أبلِ (آشور بانيبال) (٦٦٩ – ٦٢٦ ق.م) عليها مخططات لمنحوتات بارزة واخرى عليها كتابات اريد نقلها الى المنحوتة. وكان هذا النوع من النماذج الطينية يسمى **نِسخُ شَ طيطِ** ***nis h u šá titi*** [1] ولعل اقدم ما وصلنا من تلك الاعمال هو **مسلة النصر** لنرام – سين (٢٢٩١ – ٢٢٥٥ ق.م) حفيد شروكين الاكدي المعروضة في متحف اللوفر، لقد صور نرام – سين في مسلته هذه وهو يرتقي **قمة الجبل** في معركة تخلد انتصاراته على اقوام اللولوبين على الحدود الشمالية الشرقية لبلاد الرافدين وفي اعلى المسلة نرى **نجوما** مشعة فوق **جبل** عليه كتابة مسمارية يظهر فيها نرام – سين بوضعية تقدم بحجم اكبر من غيره يحمل اسلحته ويرتدي خوذة ذات قرنين دليلاً لحمله صفة الالوهية وهو يطأ برجله اعداء ساقطين يتدلى من رؤوسهم ظفيرة واحدة من الشعر، والمشهد يضم **اشجاراً** وجنوداً يتسلقون **منحدر الجبل** الذي وضح بخطوط مائلة ومتعرجة.

ان المنظر الطبيعي ذاته الذي صور لاول مرة بمدلول حقيقي، قد اصبح جزءاً من هذا التركيب الدائم الحركة. فالخطوط الاربعة احدها فوق الاخر تمثل ارتفاع الارض اشبه بالامواج بشكل مائل من القعر في يسار الصورة الى اعلى اليمين في القمة. اما على جهة اليمين فهناك اشجار. وقد توج المنظر كله بذروة جبل مخروطية الشكل[2] (اللوح – ١ –).

---

(١) سليمان، عامر: اللغة الاكدية، ص١٥٢.

(٢) مورتكات، انطون: الفن في العراق القديم، ترجمة عيسى سلمان وسليم طه التكريتي، مطبعة الاديب البغدادية، بغداد، ١٩٧٢، ص١٨١.

اللوح – ١ – يمثل مسلة النصر للملك الاكدي نرام – سين تخلد انتصاراته على الاقوام الجبلية.

عن: مورتكات، المصدر السابق، ص١٨١. (تمثيل الجبل رمزاً لجغرافية السكان وهم الأقوام الجبلية)

ومن العصر نفسه وصلتنا مجموعة من الاختام الاسطوانية يظهر فيها الاله شمش (اله الشمس) في اكثر من مشهد وهو يخرج من بين **جبلين** ماداً ساقه اليمنى الى الامام بعد ان رفعها من **قمة الجبل** وقد خرجت من بين كتفيه **الاشعة** الى الاعلى، ويظهر في مشاهد اختام اخرى وهو واقفً يعتلي حافات وقمماً صخرية (الشكل – ٢ –) وفي مشهد اخر يلاحظ اله الماء – ايا – مانح الحياة ومياه الجداول تتدفق وتنساب من كتفيه، هو يجلس في مكان شبيه بالغرفة فوق خطوط متموجة ترمز الى الماء[١] (اللوح – ٣ –) . كما وصلتنا مشاهد متعددة يظهر فيها الاله ادد (اله الرعد) الذي كان حسب اعتقاد العراقيين القدماء يسير الغيوم ويمثل الرعد والبرق والرياح والزوابع وهو سيد كل الظواهر الطبيعية وبما انه كان يمثل مظاهر الانواء الجوية لذا نجده ماسكا بيده **حزمة البرق** التي تمثل رمزه الرئيس[٢].(الشكل – ٤ –).

(١) الشاكر، فاتن، المصدر السابق، ص٢٦، ٧٠ – ٧١.

(٢) بوتيرو، المصدر السابق، ص٣٠٦.

اللوح – ٢ – طبعة ختم اسطواني يمثل مشهد الاله شمش (اله الشمس) وهو يخرج من بين جبلين

عن: الشاكر، المصدر السابق، ص٧٠

اللوح – ٣ – طبعة ختم اسطواني يمثل مشهد الاله انكي (اله الارض والماء)

عن: الشاكر، المصدر السابق، ص٣٦

– أ – – ب – – ج –

رموز الظواهر البراقة في السماء

أ. الالهة عشتار (نجمة الصباح) – النجمة الثمانية.

ب. الاله شمش (اله الشمس).

ج. الاله سين (اله القمر).

اللوح – ٤ – مشهد يمثل الاله ادد (اله الرعد والمظاهر والانواء الجوية) ويظهر فيه وهو واقف على حيوانه الخاص الثور، حاملاً بيده شوكة او حزمة البرق

عن: بوتير، المصدر السابق، ص٣٠٦

واذا ما انتقلنا الى العصر الاشوري الحديث (٩١١ – ٦١٢ ق.م)، فاننا نلمس استمرار تمثيل رموز آلهة المظاهر الجغرافية، كما في تلك الالواح الصغيرة المصنوعة من العاج التي تمثل **اِلاله الجبل**، وقد شكل القسم الاسفل من جسمه بهيأة جبل[1]. (الشكل – ٥ –).

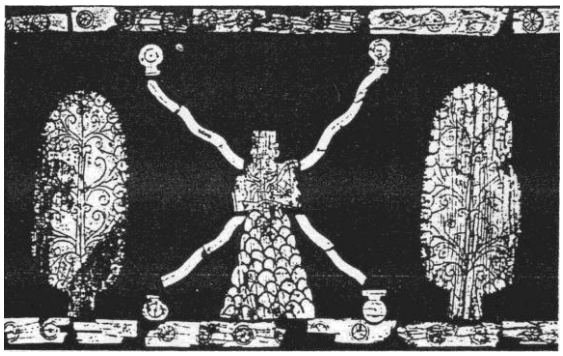

اللوح – ٥ – الواح من العاج من العصر الاشوري الحديث تمثل (الاله الجبل) تتدفق منه الينابيع او الانهار وقد غطى النحات سطح الجبل بزخارف مكررة بهيأة قشور السمك وهو مصطلح ورمزاستخدمه النحات العراقي القديم للدلالة على الارض الوعرة والجبل

عن: مورتكات، ص٣٣٩

(١) بوتيرو، المصدر السابق، ص٣٠٦.

كما ان منحوتات هذا العصر قد زخرت بمشاهد جسدت عناصر البيئة الطبيعية وأبرزتها بشكل لافت للنظر، فمن فترة سلالة شروكين الاشوري تحديداً وصلتنا العديد من هذه الاعمال، فقد زودتنا قصور الملك الاشوري شروكين الاشوري ٧٢٢ – ٧٠٥ ق.م – ومعابده بالواح شملت مواضيع قصصية مختلفة جسدت وصورت اعمال الملك وفعاليات الوقائع التأريخية المختلفة، كما في تلك المجموعة[١] من المنحوتات التي خلدت حملته الثامنة التي وقعت عام ٧١٤ ق.م على منطقة اورارتو المنيعة التي تمثلها اليوم ارمينيا. ونرى في احد مشاهد هذه المنحوتات الملك شروكين – سرجون – الاشوري – وهو يقود عربته الملكية في منطقة تحفها اشجار الصنوبر (اللوح – ٦ –)، ثم ينتقل المشهد الى مشهد ثانٍ وهو ما يتطابق مع الرواية المسمارية للحملة إذ يذكر النص ان سرجون بعد مسير ايام طويلة بعد عبوره الزابين وسيره مسافة اخرى دخل منطقة الجبال، وبعد عملية الصعود استمتع الجيش براحة استحقها وعسكر على قمة جبل ونشاهد في احدى المنحوتات حصناً[٢] يبدو انه احد المعاقل العائدة لملك اورارتو والتي سقطت على يد شروكين وهو كائن على سلسلة من الجبال المشرفة في الوقت نفسه على نهر (اللوح – ٧ –)، كما نشاهد في مشهد اخر منظر جبلين يعلوهما حصنين، والجبلان محفوفان باشجار دائمة الخضرة وينساب من احد الجبال **شلال** او نهر (اللوح – ٨ –) ونرى ايضا في مشهد اخر صورة **تل** او جبل صغير مغطى باشجار الصنوبر كما نشاهد بعض الاشجار المثمرة لعلها شجرة الفستق او اللوز وبالقرب من هذا الجبل نهر تُشاهد فيه الاسماك وبعض الزوارق (اللوح – ٩ –) وهناك مشهد اخر ربما يتفق مع رواية النص المسماري الذي يذكر انه عند اقتراب الجيش الاشوري من الجبال المشرفة على مدينة **مصاصيرُ** وجب عليهم عبور الجبال، مرة ثانية خلال الطريق غير القابلة بطبيعتها لان تجتازها العربات الحربية. ولهذا اصبح من الضروري ربط عربة الملك بحبال، في حين اضطر الفرسان الى ان يشقوا طريقهم خلال الخوانق بشكل منفرد، وبالفعل نرى في المشهد مكاناً ضيقاً **مضيقاً** بين الجبال والنهر وهو ما يسمى بـ **الخانق خنقُ *hanqu*** إذ يشاهد المقاتلون الاشوريون وهم يعبرون الخانق الجبلي ويقاتلون المدافعين عن مدينة **مصاصيرُ** (اللوح – ١٠ –).

---

(١) أخذت مشاهد منحوتات الملك سرجون عن المصدر الاتي:
Botta. P. E, "Monument DE Ninive" Tome I, 1846 – 50.

(٢) كان النحات اذا ما واجهته مشكلة اظهار الجنود اثناء العمل في معسكر او قلعة، فانه لا يتردد عن جرّنا الى داخل الخيام ليرينا ما في داخلها، او انه قد يرسم مخططا اساسا لجدران القلعة الخارجية التي يبرز البرج في خارجها. وهذه الحالة تنطبق على ابراز الاسماك والكائنات البحرية في الانهار والبحار او عوائل المتمردين المختبئين داخل احراش القصب وكذلك الخنازير والظباء كما سيمر بنا لاحقاً. اما في الفراغ الطليق المتروك داخل القلعة فانه يظهره باقسامه التي تضم الرجال وهم منهمكون بالطبخ.

اللوح – ٦ – يمثل منحوتة تخلد الملك الاشوري شرّوكين (سرجون) آلاشوري وهو يقود عربته الملكية في بيئة جبلية محفوفة باشجار البلوط والصنوبر إبّان حملته الثامنة على اورارتو

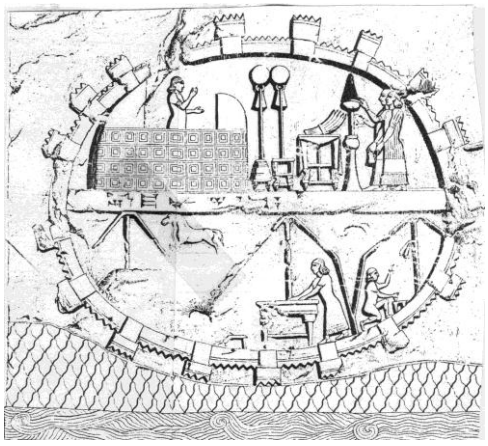

اللوح – ٧ – يمثل منحوتة لاحد حصون الجيش الاشوري في منطقة جبلية بالقرب من اورارتو (تمثل مخططاً لحصن)

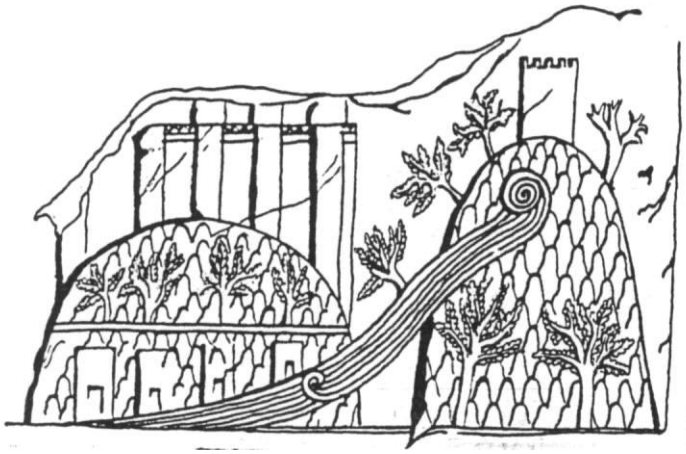

اللوح – ٨ – منحوتة من عصر شرّوكين – سرجون – الاشوري تمثل منطقة جبلية تغطيها الاشجار في اورارتو ويشاهد شلال ينساب من احد الجبال (تمثيل طبوغرافية الأرض وتضرّسها)

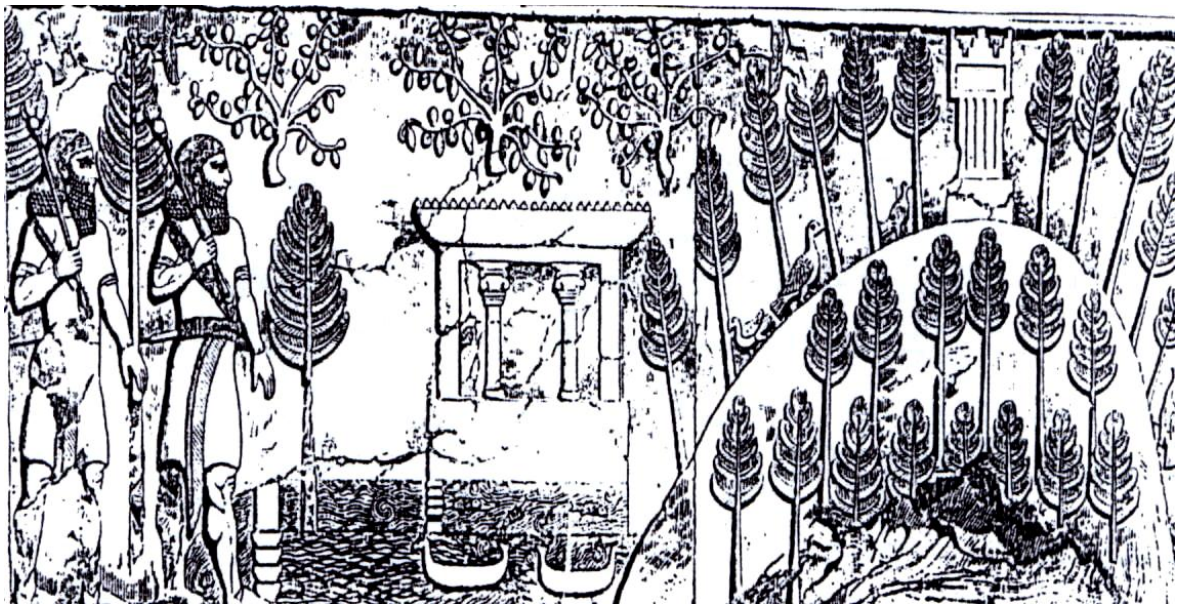

اللوح – ٩ – من عصر شرّوكين (سرجون) الاشوري يمثل منطقة جبلية مغطاة بأشجار الصنوبر والبلوط والفستق كما يشاهد نهر صغير في منطقة اورارتو (المصادر الطبيعية للمنطقة)

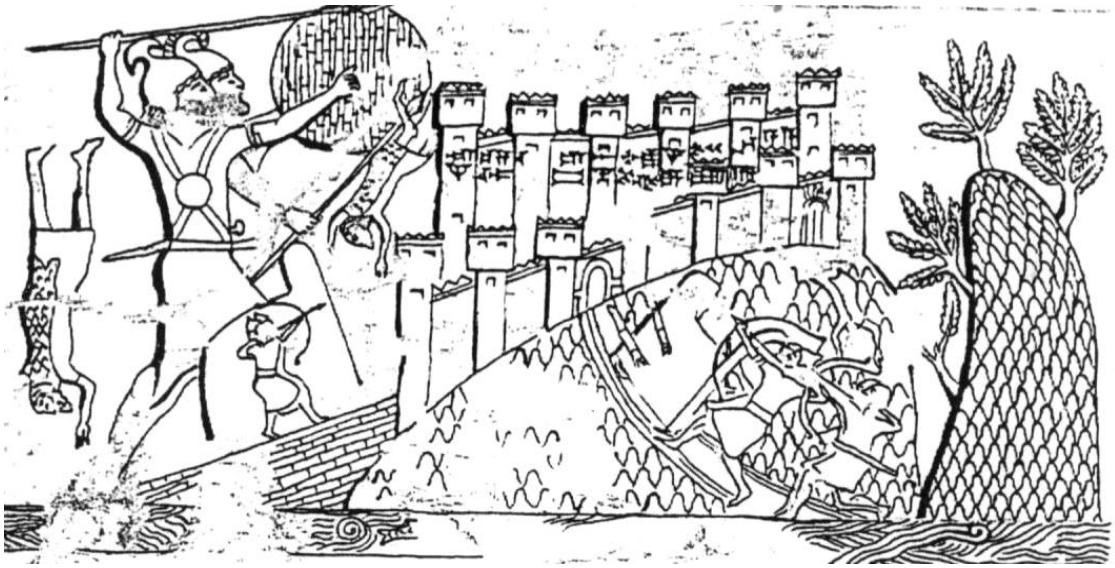

اللوح – ١٠ – منحوتة تمثل مشهد معركة لِجيش شروكين (سرجون) الآشوري بالقرب من مضيق جبل (خانق) على مشارف منطقة موصاصير (الموانع الطبيعية المائية)

نقلاً عن: Botta, Op. Cit

ومن عصر الملك سين – اخي – ايربا (سنحاريب) (٧٠٤ – ٦٨١ ق.م) وردتنا العديد من المنحوتات الجدارية[١] التي كانت تغلف جدران قصور الملك سين اخي ايربا وهي تضم مشاهد تخلد حملات الملك على الجهتين الجنوبية والغربية، وكانت مشاهد حملته على الجبهة الجنوبية اثر تمرد الزعيم الكلدي مردُك – ابل – ادينا (مردوخ بلادن) وتزعّمه الكلديين وبعض القبائل الارامية وحصوله على ضمانات التأييد العيلامي في وجه الآشوريين، فكان رد فعل سنحاريب شديداً وقام بحملته الشهيرة عام ٧٠٣ ق.م وقضى على التمرد البابلي وارسل الجيش الاشوري في عمق منطقة الاهوار والمستنقعات للبحث عن رؤوس التمرد وحلفائه من دون جدوى. وقد جسد النحات الاشوري طبيعة جغرافية بلاد بابل فأبرز عناصر البيئة ومواردها كاشجار النخيل ونهر الفرات وعدداً من الجدوال والقنوات (اللوح – ١١ –)، وبعد ان اظهر لنا مشهد تطهير مدينة بابل المسّورة نقلنا الى مشهد فيه اجواء بيئية قريبة تضاريسياً وجغرافيا من بلاد بابل وهي منطقة السهل الرسوبي والاهوار والمستنقعات والتي ترد في النصوص المسمارية بصيغة بلاد البحر **مات تيامتِ *māt tiāmti***، إذ صور النحات مشهد سحق المتمردين في الاهوار، وهنا استخدم النحات اسلوب الحقول الافقية واضعا إياها جنبا الى جنب مع طريقة المشهد المفتوح الذي يشمل اللوح باكمله. فهنا نرى **مياه الهور** الممثلة بالخطوط المتموجة، تكتنفها **اجمات القصب** كما ابرز بعض الحيوانات كالخنازير والضباء فضلا عن الاسماك التي تسبح في الاهوار ويشاهد كذلك الجنود الاشوريون وهم يطاردون المتمردين الذين صوروا وهم يهربون **بأكلاك** مصنوعة من **حزم القصب**. كما ان النحات الاشوري لم ينس تصوير عوائل المتمردين وقد اختبأوا داخل **الاحراش** قابعين وسط حزم مشدودة من القصب[٢]. والنحات بتوظيفه لكل هذه العناصر التي تحدد الاطار الجغرافي والبيئي للموضوع المصور قد جعل من العمل الفني يهتم بالموضوعات البيئية المحيطة التي كانت قد اهملت في منحوتات القرن التاسع ق.م[٣] (الالواح رقم – ١٢، ١٣، ١٤ –)، فيما ابانت مشاهد الملك في عام (٧٠١ ق.م) على الجبهة الغربية اثر تمرد حزقيا ملك يهوذا، وعصيان المدن الساحلية الواقعة على البحر المتوسط معه وبدعم من مصر، صورت هذه اللوحات الجدارية اسلوبا يخلد هذه الحملة وبشكل تطغى عليه

---

(١) اخذت مشاهد منحوتات عصر سن اخي ايريب من المصدرين الاتيين:

1. Thomason, Allison. Karmel, "Representations of the North Syrian Landscape in Neo – Assyrian Art, (B.A.S.O.R), n 321, 2001.
2. Barnett, R.D., Bleibreu, E., "Sculptures from the Southwest Palace of Sennacherib at Nineveh, British Museum.

(٢) مظلوم، المصدر السابق، ص٨٦.

(٣) عكاشة، ثروت: تأريخ الفن، الفن العراقي، سومر وبابل وآشور، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بغداد، ١٩٦٧، ص٥٨٢.

المسحة الواقعية والاحساس بالطبيعة ومناظرها المختلفة. لقد فتح نحات سنحاريب وجه اللوح باكمله لموضوع هذه الحملة مصورا جميع الحوادث التي حصلت عند حصار لاخيش اليهودية في فلسطين (تل الدوير جنوب القدس)وسقوطها، ونراه قد غطّى اللوح بأكمله بمشهد واحد ويكتفي بمفردات تفصيلية قصصية تشمل الاشخاص والنبات وسائر المصورات[١]، كما أطر هذا الموضوع من الاعلى بحقل واحد من الاشجار والتلال. كما نرى ان روحية المعالجة لهذه الالواح قد تكررت في كل الالواح التي مثلت الوقائع التأريخية في تضاريس وعرة، فقد عبر الفنان عن الارض الوعرة التي تقع عليها هذه المدينة بزخرفة مكررة تغطي سطح اللوح وهي بهيأة حراشف السمك وهو **رمز النحات العراقي القديم للارض الوعرة والجبل** وقد ادخل موضوع الاشجار كمادة ملازمة لتلك الارض كاشجار الصنوبر والكروم والزيتون، وهي من الاشجار الاوسع انتشاراً في بلاد الشام وحوض البحر المتوسط[٢] (اللوح –١٥ –) وهذه الاشجار المذكورة أنفاً طالما استخدمها الفنان العراقي القديم رمزاً لشمال بلاد الرافدين وغربها في منحوتاته بينما رمز بالاشجار النخيل واجمات واحراش القصب والبردي الى الجنوب الجغرافي[٣]. كما نشاهد في لوح اخر المناطق الساحلية المطلة على البحر المتوسط وبعض الجزر والاسماك والحيوانات البحرية ووسائط النقل الخاصة بالقوات البحرية، وبعد ذلك قام الفنان بتوزيع انواع متباينة من الاشجار في مساحات متعددة من المشهد وكانه بعمله هذا يقوم بمهمة رسام الخرائط الذي يصمم خريطة للتوزيع النباتي لمنطقة معينة في وقتنا الحاضر. (اللوح – ١٦ –).

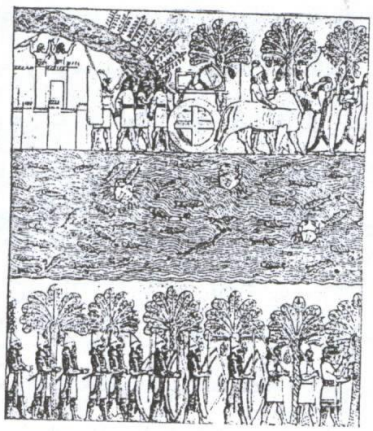

اللوح – ١١ – منحوتة من عصر الملك سين اخي ايريبا (سنحاريب) أبرّز فيها النحات عناصر بيئة بابل الجغرافية حيث اشجار النخيل ونهر الفرات ليوحي للمشاهد ان اجواء حملة الملك انما جرت في تلك المنطقة (الطوبوغرافية والثروات الطبيعة والمائية)

نقلا عن: Botta, Op. Cit

(١) مظلوم، المصدر السابق،ص٨٥.

(٢) المصدر نفسه، ص٨٥.

(٣) كونتينو، جورج: الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور، ترجمة سليم طه التكريتي، دار الشؤون الثقافية العامة، الطبعة الثانية، بغداد، ١٩٨٦، ص٣٩٢.

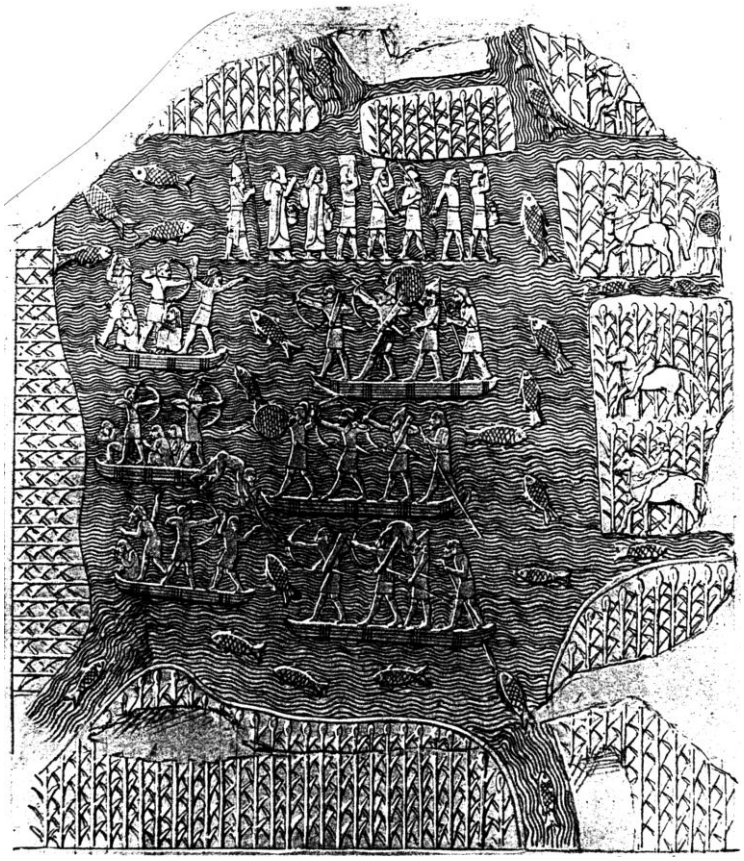

اللوح – ١٢ – مشاهد من حملة الملك سين اخي ايريبا (سنحاريب) أبرّز فيها النحات عناصر بيئة الاهوار والمستنقعات كالقصب والبردي والاسماك والخنازير والظباء الى جانب وسائط النقل المعروفة بالمشاحيف

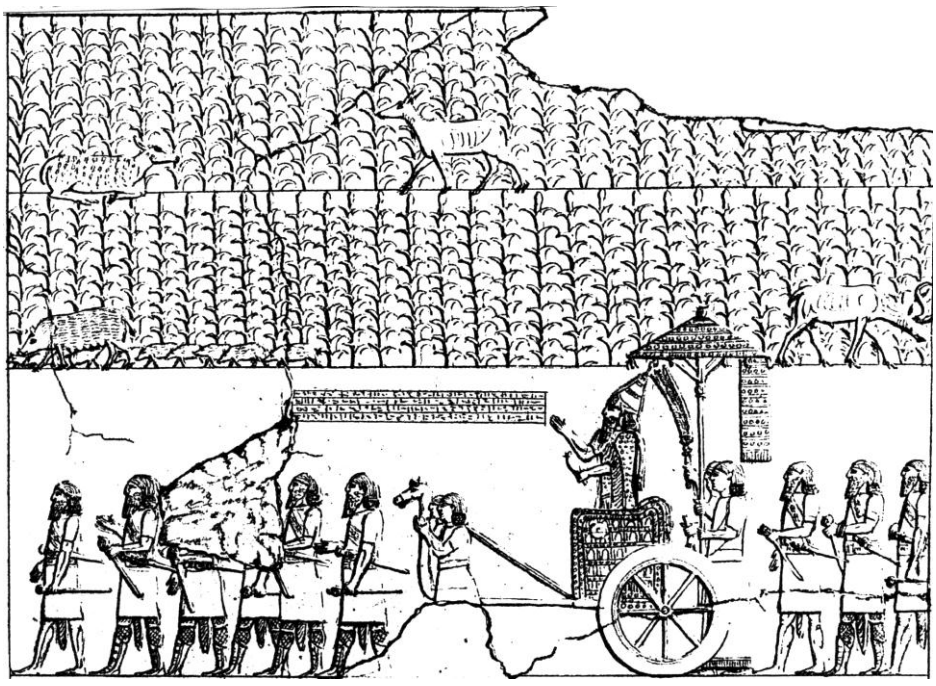

اللوح – ١٣ –

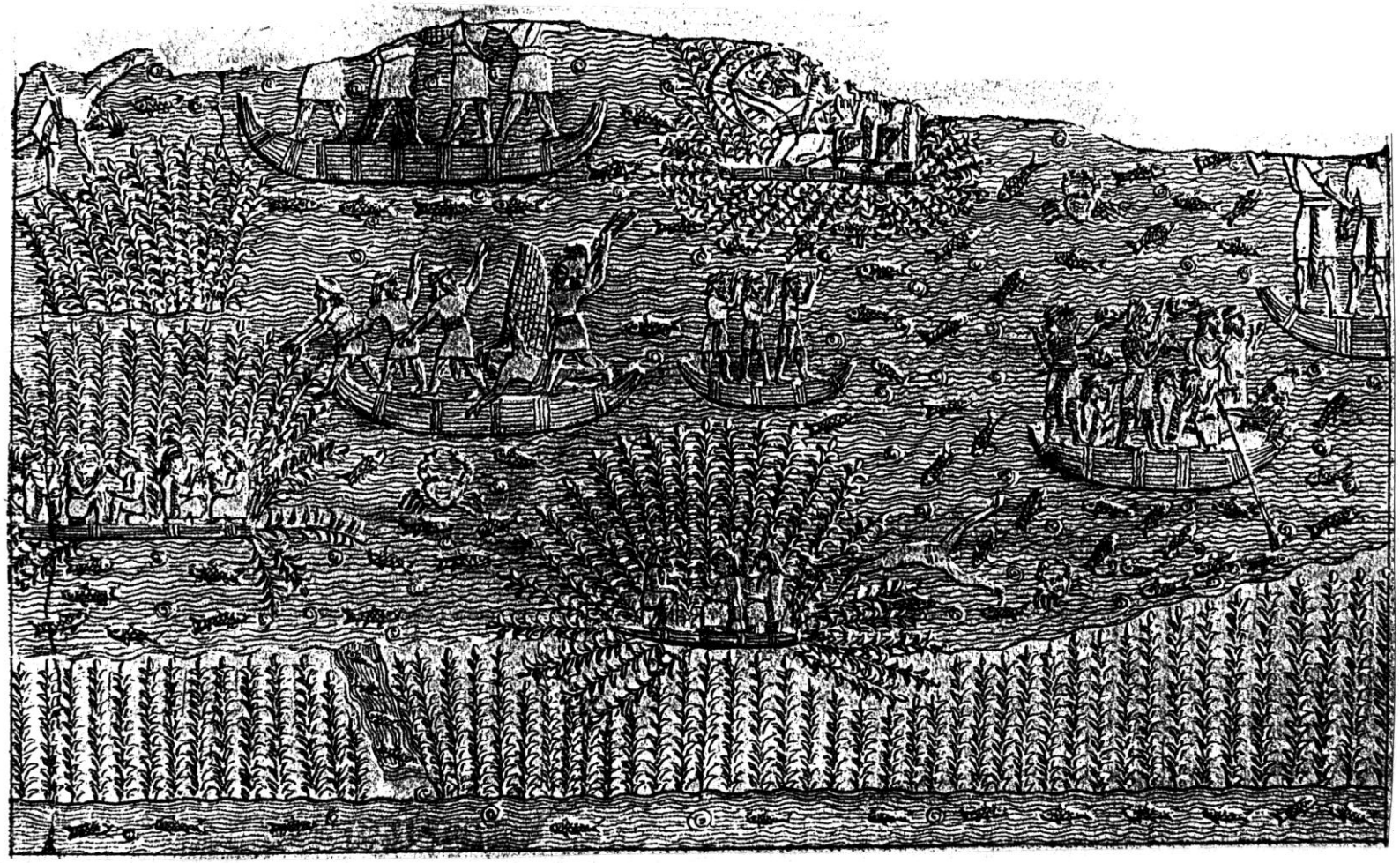

لوح رقم – ١٤ – مسطحات مائية (منطقة الاهوار والمستنقعات) وأجمات القصب والبردي ووسائط النقل المحلية (المشاحيف)

– جغرافية النقل والموصلات –

نقلاً عن: Barnett, Op. Cit

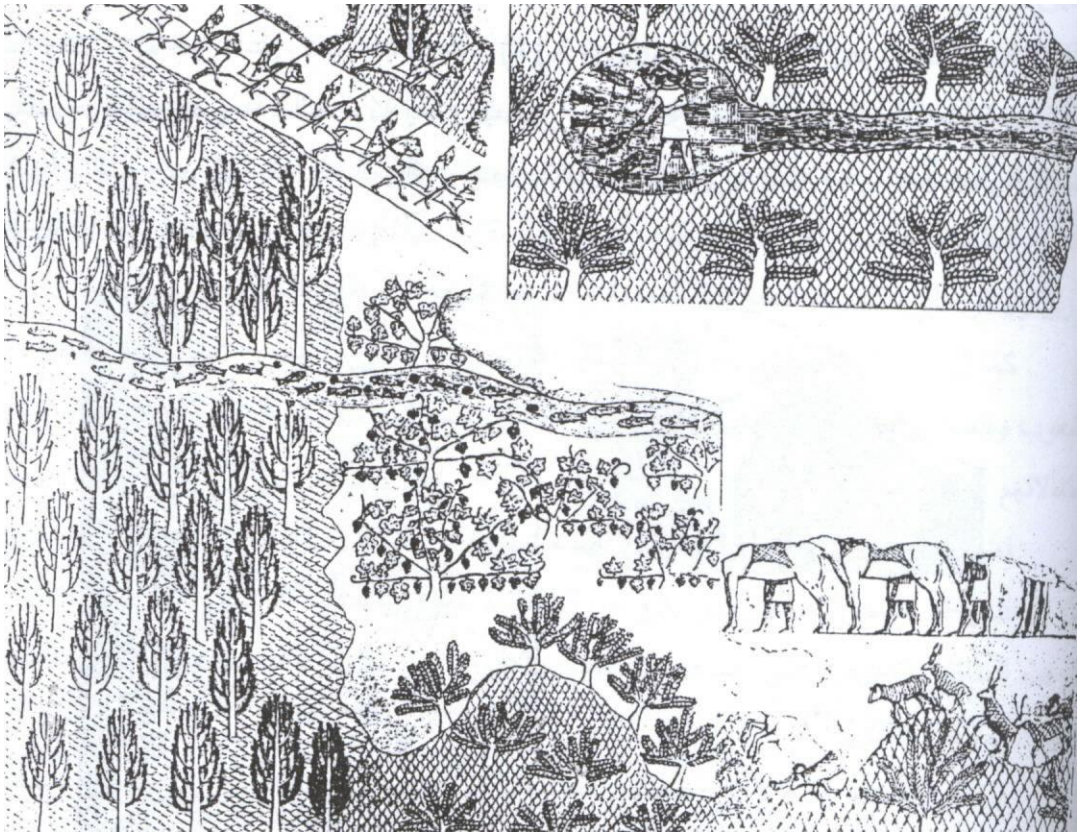

اللوح – ١٥ – مشاهد من عصر سين اخي ايريبا (سنحاريب) أبرّز النحات فيها بيئة منطقة بلاد الشام من خلال تمثيل اصناف الاشجار كالكروم واشجار الزيتون والصنوبر فضلا عن المرتفعات وسواحل وجزر البحر المتوسط (التوزيع النباتي للمنطقة)

نقلا عن: Botta, Op. Cit

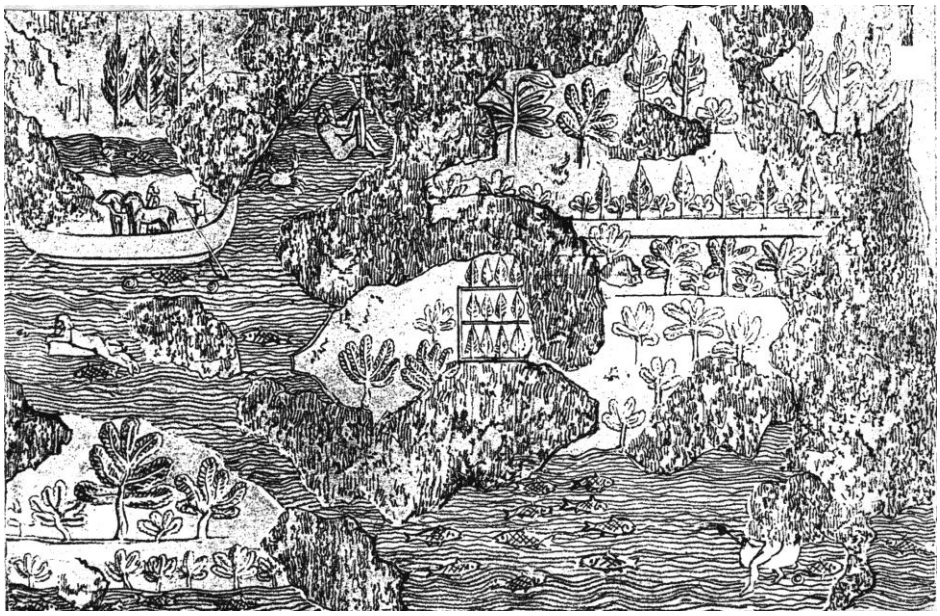

اللوح – ١٦ –

كما وصلتنا منحوتة اخرى من عصر سن اخي ايريب ايضا تخلد حملته على الجبهة الجنوبية ايضا ولكن هذه المرة على بلاد عيلام عام (٦٩٤ ق.م) حيث قاد حملة بحرية عبر الخليج العيلامي والمشهد في هذه المنحوتة يغض بصور ورموز ومفردات عالم البحار من الشواطئ والامواج التي رمز لها النحات العراقي القديم بالشكل الحلزوني، فضلا عن الاسماك والكائنات البحرية الاخرى (اللوح – ١٧ –)[١].

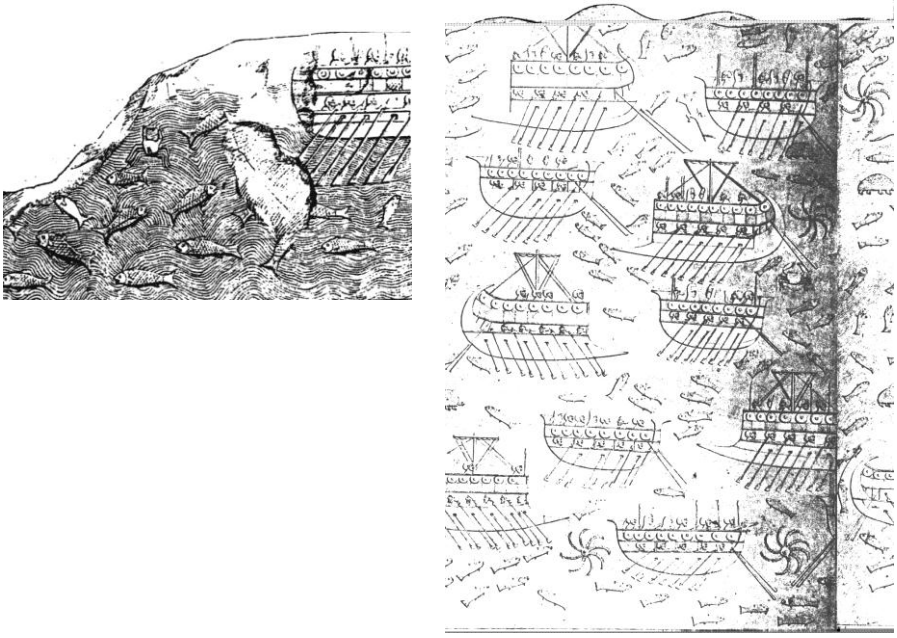

اللوح – ١٧ – منحوتتان من عصر سين اخي ايريبا (سنحاريب) تُخلدان معركة على سواحل الخليج العربي وتحديداً على الشاطئ العيلامي، أظهر النحات فيها الحياة البحرية كاملة من خلال العناصر (مياه الخليج، امواج، كائنات بحرية ووسائط نقل بحرية) – جغرافية النقل: نقلا عن: Botta, Op. Cit

اللوح – ١٨ – يمثل منحوتة من عصر الملك اشور بان ابلِ (اشور بانيبال) تُظهر حديقة للملك سين اخي ايريبا (سنحاريب) فضلا عن قنوات السقي وانواع عديدة من الاشجار وقد عالج النحات المنظور من خلال صفوف الاشجار والقنوات

(١) مورتكات، المصدر السابق، ص٣٩٢.

اللوح –١٩– يظهر مشاهد معركة للجيش الآشوري ويبدو فيها مقاتل نوبي (من جنوب مصر) واظهر النحات الآشوري ملامح هذا الشخص من خلال سحنته (اللون الأسمر) و الشعر المجعد. (جغرافية السكان) نقلا عن : SAA,Vol.IV, P.96 .

ولـم يفـت النحـات الآشـوري وهـو يوظـف عناصـر البيئـة والتضـاريس الطبيعيـة علـى منحوتاته ان يدخل عنصراً آخر من عناصر الجغرافية ونعني به هنا جغرافية السكان ففي اللوح رقم (١٩) أعلاه نراه قد بيّن لنا سُحنة مقاتل من الأقوام النوبية وهم سكان جنوب مصر، أو ربما يكون من سكان غور الاردن (الاغوار) الذين لازالوا الى يومنا هذا ذوي لون أسمر وشعر مجعّد لارتفاع درجة الحرارة كونها اخفض بقعة في العالم . والمشهد يمثل إحدى المعارك التي خاضتها الجيوش الآشورية بقيادة الملك شَرّو– كين (سرجون الآشوري) في فلسطين ويبدو ان المعركة كانت تضم في صفوف الطرف الآخر حلفا متكون من عدة أجناس[١]. وهذا ما نراه ايضا في منحوتة اخرى على العاج من مدينة كلخُ (نمرود) وهي المنحوتة المعروفة بـ (اللبوة التي تفترس الرجل النوبي) إن كان العمل الفني آشوري بحت أو انه متأثراً بالمدرستين الفنيتين الفينيقية والمصرية (ينظر شكل ٢٠)[٢].

(1) Botta and Flandin, Monument de Ninive II,88; SAA, Vol.IV, P.96

(٢) محمد علي، ياسمين عبد الكريم، المصدر السابق،ص ١٤٥.

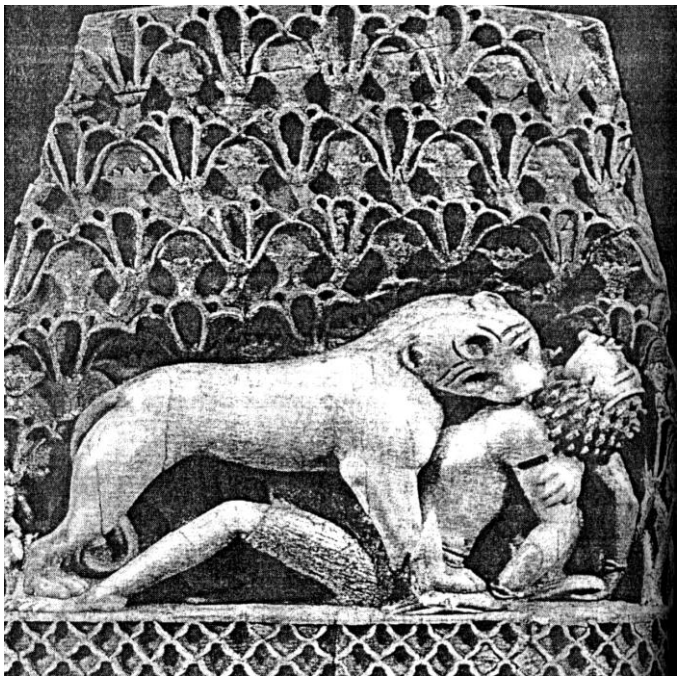

اللوح –٢٠– لوح من العاج من مدينة كلخُ (نمرود) تظهر لبوة تفترس شاب نوبي (جنوب مصر) وتظهر سحنة وملامح الشخص بلونه الاسمر وشعره المجعد. (جغرافية السكان) نقلا عن: محمد علي، ياسمين عبد الكريم، المصدر السابق،شكل ١٢٩.

كما خلّد لنا النحات الاشوري ايضاً عنصراً اخر من عناصر الجغرافية الا وهي جغرافية حركة وتحولات السكان وترحيلهم من مكانهم الاصلي الى اماكن اخرى ، وهي سياسة اتبعها الملوك الاشوريين على الاقوام والشعوب المندحرة والخارجة على طاعة المملكة الاشورية وكنتيجة ايضاً من نتائج الحرب ، فاظهر لنا النحات العديد من هذه المشاهد من بيئات واجناس وازياء وسحنات مختلفة ولكنه اعطى لها قرينةً واضحة من خلال الغطاء النباتي للمنطقة التي جيء بهم منها وهم مصفدين في الاغلال ان كانوا رجالاً او يسيرون او راكبات على العربات ان كانوا نساءاً او اطفالاً وهم في طريق الاسر . كأن يضع اشجار العنب والزيتون والصنوبر كلازمة وعلامة وخلفية للمشهد ليعط انطباعاً للمتلقي والمشاهد ان هذه الشعوب انما جيء بهم من بلاد الشام او بلاد الاناضول حيث تشتهر تلك المناطق بزراعة تلك الاشجار ، او ان يضع اشجار النخيل والقصب ونهر الفرات ليوحي للمشاهد ان هؤلاء الاقوام جيء بهم من بلاد بابل او جنوبها او غرب الفرات (ينظر اللوح رقم ٢١).

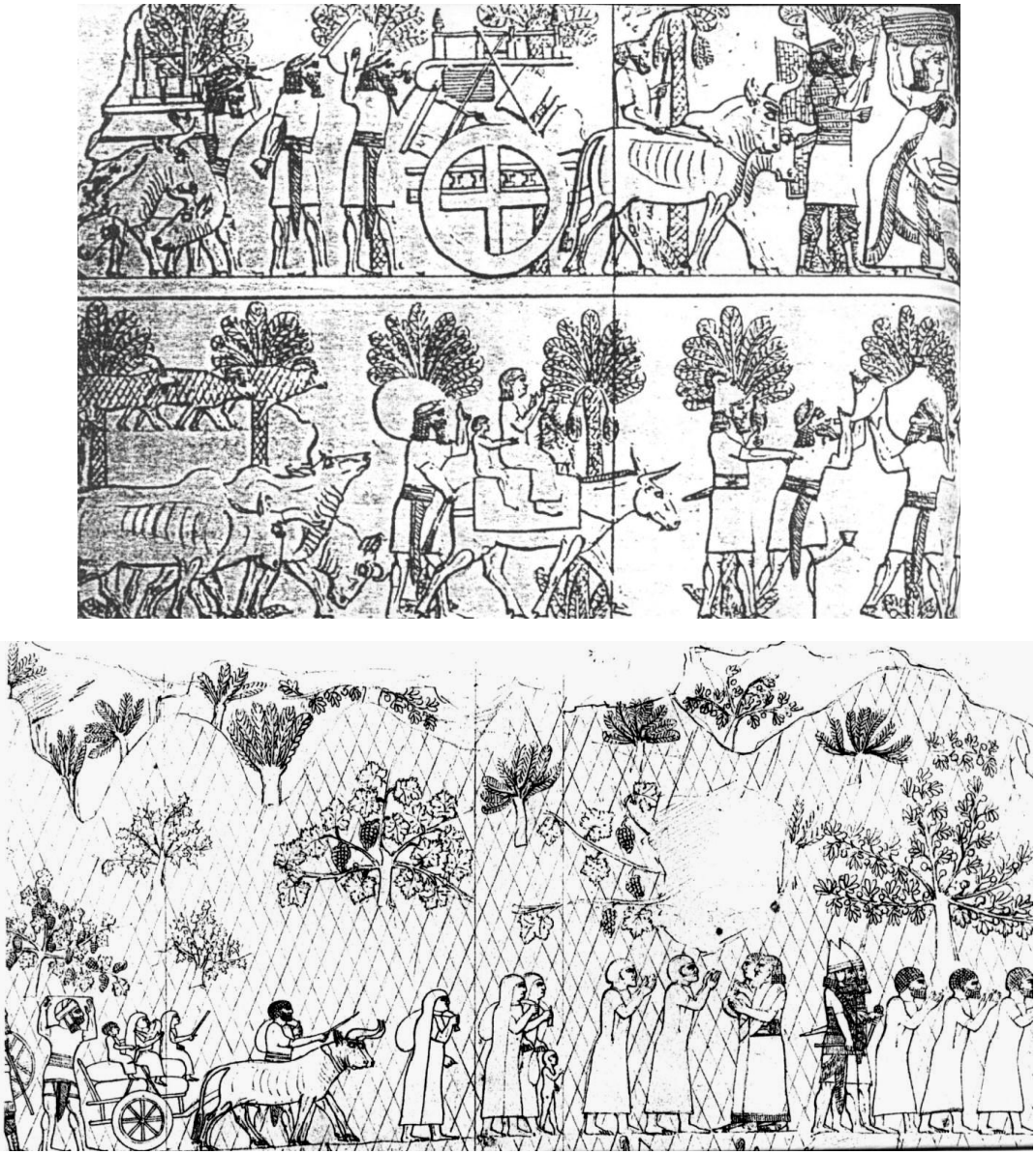

اللوح –٢١– منحوتتين بارزتين يظهران مشاهد حركة وتحولات السكان وترحيلهم من مكانهم الأصلي (بلاد الشام او الأناضول او بلاد بابل ومناطق الفرات الاوسط) الى بلاد آشور.نقلاً عن: SAA,Vol.XV.Opcit

ان التمثيل الطبيعي لمشاهد لبلاد الشام على سبيل المثال والذي مثّل هدفا اقليميا اوليا للمملكة الاشورية الحديثة تم تصويرها في قلب المملكة على شكل مصورات أعدت على المنحوتات البارزة على الحجر حيث زينت جدران القصور الملكية في كلخُ (نمرود) ودور شروكين (خرسُباد) ونينوى (تل قوينجق). ويشير التحليل لهذه الصور الى ان تلك المشاهد

الطبيعة قد صورتها الاداة والوسيلة الملكية الاشورية في عصرها الحديث بمثابة عالم مورق ووافر مليء بالحياة الحيوانية الغريبة وتنوع الطبيعة[١] ينظر الشكلان١٥ و ١٦.

كما ان هذه المنحوتات تبين لنا كيف ان الاشوريين صوروا مجموعات عديدة من الشعوب والمدن والمناظر الطبيعية التي واجهوها إبّان حملاتهم العسكرية الخارجية او في احتفالاتهم الداخلية[٢].

فضلا عن ان هذه المنحوتات التي تتضمن تفاصيل لمناظر طبيعية في مناطق خارج بلاد الرافدين قد استحوذت على قدر بالغ من الاهمية، حتى ان اغلب الباحثين استلهموا وافادوا من هذه المناظر الطبيعية على المنحوتات الجدارية في تفسير حدث او واقعة معينة في حالة غياب النصوص الكتابية[٣].

اما في حالات أخرى، فان عناصر المشاهد الطبيعية قد استخدمت في تفسير بعض المظاهر البشرية على المنحوتات البارزة[٤].

ان التفاصيل المعقدة التي تظهر على المنحوتات البارزة التي تخلد فتوحات الملوك الاشوريين في بعض مناطق الشرق الادنى القديم في العصر الاشوري الحديث، تقدم مادة وثائقية كبيرة نستطيع ان نفهم من خلالها الفن الاشوري الحديث. وهكذا فان التحليل الخاص لمراجع النصوص والمناظر المتعلقة بالمشهد الطبيعي للحياة النباتية والحيوانية في هذه المنطقة تشير الى ان الادوات والوسائل الملكية الاشورية قد مثلت هذا المشهد في تلك البلاد بزخم من عناصر الطبيعة المتنوعة. فكان هذا المشهد مشوقا جدا، الامر الذي جعل الملوك يعكسون هذه الوفرة النباتية والحيوانية على هيأة حدائق ملكية وحدائق حيوانات وكذلك متنزهات كما تشير الى ذلك نصوص الحوليات الملكية والمشاهد، كما ان تلك المتنزهات كانت قد شُيدت لتكون اماكن لاغراض الراحة والمتعة ومخصصة للملوك الاشوريين. وعلى اية حال، فان تصوير وانعكاس بيئة بلاد الشام مثلا، لم يكن يهدف بالضرورة الى اثارة اشورية اتجاه المحاكاة الصورية للطبيعة[٥].

ومن الباحثين من ذهب الى الاعتقاد بان الانشاء والتكوين في الفن الاشوري لبعض مناطق الشرق الادنى القديم كان مجرد مسألة تصوير خيالي يستمد من الدراسات المتخصصة

(1) Thomason, A.K., "Representations of the North Syrian landscape in Neo – Assyrian Art", Southern Illinois University Edwardsville, 2001, P. 63.
(2) Marcus, M.I, "Geography as an Organizing Principle in the Imperial Art of the Shalamanser III, IRAQ 49, 1987, P. 77.
(3) Reade, J. E., "Studies in Assyrian Geography", Part 1 and Suite: Sennacherib and the Waters of Nineveh, 1978, P. 48.
(4) Albenda, P., "Monumental Art of the Assyrian Empire: Dynamics of Composition Styles.Monographs on the Ancient Near East 3: 1". Malibu: Undena, 1998, P. 63.
(5) Thomason, Op. Cit, P. 65.

في الجغرافية السياسية. إذ يوجد خزين ورؤية عامة وواسعة فيما يتعلق بالمشهد الطبيعي، او انه يوظف ويقتبس الطبيعية العفوية كخلفية (Background) فقط لذلك المشهد الذي يُنفذ. الا ان هذا الرأي لم يلق التأييد في اوساط مؤرخي الفن لأنه لا اساس له من الواقع ولا يُعتد به. وقد اثير هذا النقاش اثارة كبيرة ولاقى نقدا كبيراً.

ويقارن كل من الباحث (كوسكروف ودانيالز) المشهد الطبيعي والمعرفة الجغرافية، وذكرا بان كلاهما يطور ذلك المشهد ويحيله الى صورة ثقافية او رمز. وكما يذهبان الى القول بأن اِحداث فراغ في كلمة او صورة ليس حقيقة تجريبية بل كتلة تصويرات. وهكذا فان لغة الجغرافية والمنظر الطبيعي وكذلك الاستعارات التي استخدمت كلها لتصف الاماكن وتصورها هي هياكل عفوية تُحدّد وتستند الى البيئة الثقافية التي نشأت عنها على الرغم من مظهرها الذي ينشأ بقوة في الحقيقة البنيوية. ان المشهد الطبيعي فيما لو كان محددا في خريطة او في صيغة ما، او رسم معين، فانه يمثل مَلَكة للخيال، وتكوين لفكر الانسان اكثر مما لو كان تصويرا دقيقا لحقيقة طبيعية ما[١].

ويمكن لهذه المشاهد الطبيعية المتخيلة ان تُرى وكأنها مناظر طبيعية قسرية تُشير الى فلسفة الدولة الاشورية، كما انها أُعدت لاهداف بث روح القوة والسيطرة الامر الذي يستدعي التأمل والتدقيق لانها جديرة بذلك فعلاً. وعلى اية حال، فان اول ما ينبغي علينا تمحيصه هو المعاني الجغرافية والطوبوغرافية والتأريخية التي يتحقق من خلالها التمثيل الاشوري لمشاهد بلاد الشام الطبيعية[٢].

وبينما يتصف الامر بالسهولة في وصف مناطق مثل بلاد الشام وتمييزها عن المناطق الاخرى في الشرق الادنى القديم، فان الصعوبة تكمن في فهم حقيقة، مفادها ان الوصف التجريبي في شمالي سوريا المنفذة على هذه الاعمال يكون قليلا عن الاقتراب من الفهم الاشوري لهذه المشاهد. وهكذا فان مَلَكة التّخيل الاشوري وتمثيل تلك البلاد يمكن تتبعه من الصور التي تمثل تلك المشاهد وتصفها. وتكمن المشكلة المركزية التي يواجهها الباحثون والخاصة بتحليل المشاهد الطبيعية في القصص السردية للمعركة في العصر الاشوري الحديث والمشاهد المتعلقة بدفع الاتاوة في تحديد مكان وقوع الحدث او نشوب المعركة. الا ان الباحثين استثمروا وصف الشخوص وتجهيزاتهم، وهم من غير الاشوريين أي من سكان البلدان الاخرى الذين يظهرون في المشاهد لتحديد موقع الاحداث في تلك المنحوتات، الى جانب ذلك فقد افرزوا عناصر المشاهد

(1) Cosgrove, D. and Daniles, S., "The Iconography of Landscape: Essays on the Symbolic Representation Design and Use of Past Environments", Cambridge Studies in Historical Geography 9. Cambridge: Cambridge University, 1988, P.1.
(2) Thomason, Op. Cit, P. 66.

الطبيعية مثل الصنوبر والزيتون والعنب في البلدان التي تقع الى شمال وغرب بلاد الرافدين او اشجار النخيل وأجمات القصب في بلاد بابل والاهوار في جنوب بلاد الرافدين. تمّ استخدامها كرمز لتحديد موقع حدث خاص[١].

وقد علق عدد من الباحثين بان تصوير المشاهد الطبيعية كان قليلا في مطلع فترات المملكة الاشورية ثم اصبح اكثر تفصيلا وازداد تعقيدا باتجاه خط النهاية وخاصة فيما يتعلق في حكم الملك سين – اخي – ايريبا (سنحاريب) (٧٠٤ – ٦٨١ ق.م). وفي فترة حكم هذا الملك، بدء تغير موضع الخط الارضي (الافق) واختلاف الحجم بين الخلفية والصور، فقد أظهر النحاتون تركيزا اكثر عمقا على المشهد الطبيعي، بمحاولة اظهار المنظور (Isometric)، لذا فقد ابدعوا في السرديات مع ملاحظة تخصيص حيّز كبير من التفاصيل في تصوير المشاهد الطبيعية[٢]. يتضح مما تقدم ان الفنان العراقي القديم قد استلهم مظاهر وعناصر البيئة الطبيعية الجغرافية ووظّفها في بعض اعماله، ناهيك عن تضمينه رموزاً عرفت بها بعض الالهة العراقية القديمة لاقترانها وتحكمها – حسب اعتقادهم – بمظاهر الانواء الجوية والظواهر الطبيعية. كما كان لابد لتلك الاعمال الفنية وخاصة مشاهد المنحوتات البازرة والرسوم الجدارية – والتي يمكن عدها نوعا من الملصقات الجدارية او السياسية –، ان تُحدث وقعا وانعكاسا لمن يتاملها ويشاهدها وهي متضمنة مفردات وعناصر ذات بعد تضاريسي وجغرافي، الامر الذي سيؤدي بالتاكيد الى تكوين انطباع حقيقي عن مظاهر الطبيعة، فضلا عن غرس بعض الافكار والمفاهيم والثقافة الجغرافية في نفوس وذهنية المتلقّي ممّن يزورون ويرتادون تلك القصور الفارهة. حتى ليمكن أن نعدّ تلك المنحوتات بمثابة (وسيلة ايضاح) تعليمية جغرافية.

(1) Marcus, M.I., "Geography as Visual Ideology: Landscape, Knowledge and Power in Neo – Assyrian Art", 1995, PP. 193 – 202, in Neo – Assyrian Geography, ed. Liverani. M., Quaderni di Geografia Storica 5. Rome: Universitá di Roma.

(2) Russell, J. M., "Sennacherib's Palace without Rival at Nineveh", Chicago: University Chicago, 1991, P. 209.

أثر الفكر الجغرافي العراقي القديم في الفكر الجغرافي عند الأمم الاخرى

كان لاسهام سكان بلاد الرافدين في مجال الجغرافية اثره الكبير في الامم الاخرى فقد وضعوا حجر الاساس لهذا العلم. ويعود لهم الفضل في رسم اول خريطة عرفها العالم فعمدت الشعوب الاخرى الى الافادة من هذا التراث الضخم والاضافة اليه. ومما تجدر الاشارة اليه ان المصادر لم تزودنا بمعلومات عن تأثيرات بلاد الرافدين في البلدان الاخرى بخصوص هذا الميدان بل اقتصرت على ذكر أثر الفينقيين وبلاد اليونان فيها، ويبدو ان تلك الافكار الجغرافية قد انتقلت الى بلاد اليونان وبقية اجزاء اوربا عن طريق الفينقيين الذين اقتبسوا من دون شك معلوماتهم من مفاهيم سكان بلاد الرافدين الجغرافية بدلالة استعانة الاشوريين بهم وبخبراتهم ولا سيما في مجال بناء السفن والملاحة في البحار لتوسيع معلوماتهم الجغرافية عن البلاد التي فتحوها فكان طبيعيا ان يتأثروا بالافكار الجغرافية العراقية[١].

وفيما يتعلق برسم الخرائط عند اليونانيين نجد انه من الثابت انهم لم يبتكروا فكرة الخريطة بل اقتبسوها من البابليين، ولذلك كانت بداياتهم للخرائط تكررا لما ورثوه من البابليين[٢].

ويوجد دليل وهو نص يشير الى ان الجغرافيين الاغريق قد طوروا الخرائط المقارنة اثناء اواسط الحقبة الاولى. إذ يشير هيرودوتس **الكتاب الرابع من تاريخه** الى الخرائط المدورة للعالم **ولعل منها خريطة العالم البابلية المدورة** قبل تزويدنا بوصفه للعالم المسكون:

"انني اضحك عندما ارى خرائط رسم عديدة للارض والتي لم يكن احد قد رسمها بشكل معقول حيث انهم يرسمون المحيط يجري في دائرة حول الارض كما لو كانت مرسومة ببوصلة لترسم قارة اسيا مساوية لقارة اوربا، لكنني انا نفسي سوف اشرح كيف ان كل واحدة منها ستكون كبيرة الحجم وكيف سيتم رسمها"[٣]. ولسوء الحظ، فلم تكن اية خريطة اغريقية مرفوضة من قبل هيرودوتس قد بقيت حتى ذلك التاريخ. ويفترض ان احدى الخرائط التي يمكن ان يكون هيرودوتس قد رأها كانت خريطة انكساماندر Anaximander(٦١٠-٥٤٦ ق.م).ان هذه الخريطة وخرائط اخرى شبيهة بها والتي تُعد اثرية قد نوقشت في القرن الرابع ق.م من قبل الجغرافي اكاثمونيوس Agathemenus وانكساماندر Anaximander والاخير هو الاول الذي رسم العالم المأهول على لوح ... ورسم القدماء العالم المأهول وتم وضع اليونان في الوسط، ووضع ديلفي Delphi كذلك اليونان في وسطها وعدها سرّة الارض فضلا عن وضع دائرة حول الارض تمثل الاوقيانوس.

---

(١) الطائي،إبتهال ، المصدر السابق، ص١٠٣.

(٢) خصباك، شاكر والمياح، علي: الفكر الجغرافي، بغداد، ١٩٨٣، ص٤٦.

(3) Horowitz, The Babylonian Map …., Op. Cit, P. 19 – 20.

وهكذا فان كلا من الخرائط الاغريقية التي وصفها هيرودوتس وانكساماندر، والخريطة البابلية تشاطر الاعتقاد ان العالم المأهول كان محاطا بالمياه. وثمة تشابه اخر يمكن ايضاحه بين الخريطة الاغريقية والخريطة البابلية وهو الاستخدام المشترك للرموز الهندسية **لغة الخريطة** التي تمثل السمات الطوبوغرافية. ففي خريطة انكساماندر، كانت الدائرتان المتحدتا المركز ومؤشر البوصلة (الجهات الاربع) يمثلان الخط العام لسطح الارض، مع خريطة ديلفي في الوسط. اما على الخريطة البابلية، فتوجد اشكال هندسية قياسية تتضمن **الدائرة** و**الشكل البيضوي**، و**المثلث** و**تموجات النهر** والتي تمثل سمات مختلفة لسطح الارض[١].

وصارت الفكرة العراقية القديمة باتخاذ بابل مركزاً للعالم تقليداً سار عليه كل رسامي الخرائط فيما بعد واعتمدته المراكز الكارتوكرافية (الخرائطية) الحالية، كما نلمس ذلك في خريطة العالم البابلية (تنظر: خريطة العالم البابلية في الفصل الثالث)، إذ ظل منشئو الخرائط ومحرروها حتى القرن السادس عشر الميلادي يجعلون مركز العالم عندهم بلدهم، فاليونان جعلوا اولمبوس مركز العالم والرومان، روما كما ان فكرة رسم خريطة كانت معروفة في مليتوس (ملاطيا حالياً) المدينة اليونانية من قبل انكسماندر Anaximander ٥٤٦ ق.م، وقد استعاروها دون شك من بلاد الرافدين يقول هودجز "ان ادعاء **انكساماندر** بأنه اول من رسم خريطة للعالم، غير دقيق فقد عُرفت الخرائط المختلفة الانواع قبل عهد انكسمندر بمدة طويلة ولقد كانت تلك الخرائط خرائط ملكية او مجرد رسومات تبين كيفية الوصول الى منطقة معينة وعلى الرغم من توضيحها للمسافات والمناطق الا انها غالبا ما خضعت لمقياس معين وان لم تكن الاجزاء المعروفة في العالم زمن انكسمندر كبيرة الاتساع فان رسم خريطة له كانت مشروعا ضخما وخطوة عظيمة ليقوم بها رجل واحد"[٢].

كما نلمس ذلك من اقتباسهم لفكرة لغة الخريطة ولا سيما تمثيلهم للمياه بخطين متموجين متوازيين ووضع المدن داخل الدائرة.

كما نجد ان اليونانيين مثلا لم يضيفوا شيئا يذكر الى ما جاءت به الحضارة العراقية القديمة في مجال خلق الارض ونشأة الكون واذا تذكرنا قصة الخليقة العراقية، نجد ما جاء به طاليس واعدوه نظرية يونانية، ما هو الا ترديد لما اكدت عليه الحضارة العراقية القديمة. واذا تتبعنا حياة طاليس وهو تلميذ فيثاغورس الفيلسوف اليوناني الشهير في منتصف القرن السادس ق.م نجده متأثرا وناقلا للفكر العراقي القديم وقد عاش طاليس في الفترة ما بين ٦٢٤ – ٥٢٥ ق.م ويقول هيرودوت، المؤرخ اليوناني ان طاليس من اصل فينيقي وهذا يعني انه تشبع بالمعرفة التي تعود جذورها الى الحضارات القديمة ومنها العراقية وكانت الحضارة العراقية قد حددت فكرة

(1) Horowitz, The Babylonian Map …., Op. Cit, P. 19 – 20.

(٢) الطائي،ابتهال، المصدر السابق،ص١٠٣.

عن شكل الارض وتكوينها، وعندما اصبحت قيادة الفكر الجغرافي بيد اليونان حاول الفلاسفة اليونانيين تطوير الاراء السابقة وفلسفتها تبعا لطبيعة عصرهم الذي سادت به فلسفة العلوم[١].

كما ان افكار طاليس وانكسمندر وهيكتوس عن الارض بانها منبسطة على شكل قرص في الكون لا حركة لها هي الافكار البابلية نفسها[٢].

ويتضح تأثير الفكر الجغرافي العراقي القديم فيما يخص المناخ والتغيرات الطبيعية، اذ انه قبل الاكتشاف الذي حصل في نُفّر كنا نعرف رسالتين في مبادئ الفلاحة والزراعة كانتا معروفتين من الازمان القديمة اولاهما الاراجيز الشعرية الزراعية التي نظمها **فرجيل** وسماها **فلاحة الارض** والمؤلّف الثاني هو مؤلّف هزيود المشهور بـ **العمل والايام** وهو اقدم من الاثر الاول ولعله كتب في القرن الثامن قبل الميلاد ولكن اذا قارناه بالنص السومري المكتشف في نفّر والذي عُرف بـ – تقويم الفلاح – الذي دوّن في حدود ١٧٠٠ ق.م فأنه يسبق هزيود بنحو الف عام[٣] (راجع مبحث المناخ في الفصل الثاني).

ومن الجغرافيين الذين تخرجوا من مدرسة حضارة المدن الاغريقية في بابل، العالمان الجغرافيان ديونيسيوس Dionysios وزميله ايسيد وروس Isidoros أي: **عطية ايزيس** اللذان كانا من سكان مدينة المحمرة الحالية على الشاطئ الشرقي لشط العرب شمالي الخليج العربي[٤].

يتضح مما تقدم ان سكان بلاد الرافدين كانوا اول من اسس علم الجغرافية وفن صناعة الخرائط Cartography وعلم المساحة[٥] ومما لا شك فيه انه كان للفكر الجغرافي العراقي القديم في علم الجغرافية والفلك والرياضيات تأثير ملموس في سير تفكير الفينيقيين والقرطاجنيين ثم اليونان والرومان وانتقلت الى اوربا في العصور الوسطى فيما بعد، والذين اخذوا عن البابليين في كثير من الجوانب المتعلقة بجغرافية العالم[٦].

---

(١) فضيل وزميله، المصدر السابق، ص٩٩ – ١٠٠.

(٢) الطائي، المصدر السابق، ص١٠٤.

(٣) كريمر، السومريون، المصدر السابق، ص١٣٨. وكذلك الطائي، المصدر السابق،ص١٠٥.

(٤) المولى، جاسم عباس: احوال العراق ابّان الاحتلال السلوقي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الموصل، ٢٠٠٥، ص٦٧.

(٥) سوسة، العراق في الخوارط القديمة، المصدر السابق، ص٧.

(٦) الطائي،ابتهال، ص١٠٥.